حجة فلسطين

ومن ذا الذي كتبها لليهود ؟ (١)

موضوعي اليوم تاريخي وكل مستنداتي فيه التوراة . والتوراة كتاب مقدس يعترف به اليهود والنصارى والمسلمون . ولكن أي توراة ؟

وقضيتنا الآن ما هي حجة اليهود في إدعاء أمرين . الاول : إنهم شعب الله المختار . والثاني . إن فلسطين أرض الميعاد التي وعدهم الله بها ملكاً لهم . وسندهم في هذه الملكية وتلك الدعوى هو التوراة، والنصارى يعترفون بالتوراة كما وصلت إليهم من أيدي اليهود. واليهود لا ينكرون ان التوراة التي يتداولها النصارى وقد طبعوها ونشروها بعدة لغات هي ترجمة صحيحة عن العبرية للتوراة التي بين أيديهم . ونحن نحاسبهم على دعواهم هذه بموجب توراتهم .

ومعلوم أن الانسان في كل زمان يجب أن يكون حائزاً لحجة تثبت ملكيته للعقار الذي يدّعيه لنفسه سواء كان طيناً أو عمارة أو نحو ذلك . حتى في عصرنا هذا يجب أن يكون في يدك وثيقة يسمونها « فاتورة » تثبت انك اشتريت هذه الحلية من الصائغ فلان وإن هذه السيارة اشتريتها من التاجر فلان الى غير ذلك .

فلنرَ الآن ما هي حجة اليهود بأرض الميعاد التي وعدهم الله بها . وبأنهم أخصّاء الله ، وإن الله ، أعني اللّٰه، هو إلههم وحدهم ، وإن جميع الأمم الأخرى ليست من عباد الله. فهم محتكرو الله دون سائر الأمم استغفر الله . هم محتكرو يهوه . وبهذا الاختصاص أحلّ الههم لهم أملاك الأمم الأخرى وأرزاقهم وأنسالهم .

فلما همّ موسى أن يقود بني اسرائيل من مصر الى فلسطين كان يمنيهم بملكوت الله في فلسطين ، وإنه لهذا يقودهم إلى هذه البلاد حاسباً إياها أرض الميعاد التي خصها الله بهم . إن هذه الأرض ملتقى جميع بني اسرائيل بحسب يقين اليهود . وكان موسى يغريهم بأن هذه الأرض تفيض لهم لبناً وعسلاً (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثالث عدد ٦ إلى ١٠)

---

(١) محاضرة ألقاها العلامة الاستاذ نقولا الحداد في النادي الشرقي بالقاهرة في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وإن الله يدفعها لهم منها فيطرد الكنعانيين والأموريين واليبوسيين والحثيين والفرزيين والحويين والصيدونيين إلى آخر من فيها من الأمم الأخرى التي ليست من شعب الله (أنظر سفر الخروج الاصحاح ٣ عدد ١٧). وقد حلل لهم أراضيهم ومواشيهم وبيوتهم وأثاثهم وفرشهم ولحفهم وآنيتهم. كذا كان موسى وهو يقودهم من مصر يزين لهم القوة والغنى والسعادة.

ولما عزموا على الرحيل أوعز الله إليهم أن يستعيروا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر العدد ٣٥ و٣٦). وفي اليوم التالي رحلوا وتلك الأمتعة معهم كغنيمة باردة.

يا لله! ما هذا الإله الذي يوعز إلى قوم أن يسلبوا قوماً آخرين؟. أليس جميع الأقوام هم من خلائقه؟. وقصة فرار الاسرائيليين من مصر وإقامتهم في سفح جبل سينا مدة ٤٠ سنة إلى أن أتى الوقت المناسب للزحف إلى أرض الموعد، هي قصة معروفة جيداً عند كل منا.

ولما وصلوا إلى هدفهم كان موسى قد شاخ وهو في أرض عربات مواب، وصعد إلى جبل نبو إلى رأس العسجة حيث أراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وما يليهما. قال له: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر (أنظر سفر تثنية الاشتراع ٣٤ ـ ١ إلى ٦) لأنك أنت وأخاك هرون خنتماني في وسط اسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية جين إذ لم تقدساني في وسط اسرائيل (تثنية ٣٢ — عدد ٥٠ و٥١). ومات موسى في أرض جلعاد، ولم يدخل أرض الميعاد. ودخل شعب اسرائيل أرض الميعاد بقيادة يشوع خليفة موسى.

وحين كان الاسرائيليون في برية سينا أمر الرب موسى أن يصنع خيمة عظيمة كي يكمل يعبده فيه شعبه. ووصف له كيفية صنعها وأماكن الذبيحة فيها. وجعل في صدرها الأقصى مكاناً لتابوت العهد الذي وضع فيه اللوحين الحجريين اللذين كتب الرب عليهما بأصبعه وصايا العشر. وسمي ذلك الصدر قدس الأقداس. ثم أملى عليه الرب المرة بعد المرة شرائعه. وكان موسى يذيعها على الشعب. ولم يكن يكتبها لأن الكتابة في ذلك العهد لم تكن كالكتابة اليوم، فكان مستحيلاً أن يكتب بها شرح طويل. وكان الله قد استخدم ابراهيم الخليل من اور الكلدانيين منذ ٢٣٠٠ سنة قبل المسيح يتنبى نسله بأن يجعلهم

كنجوم السماء في الكثرة (أنظر تكوين ١٥ — ٥) وكتراب الأرض (١٣ — ١٦) وانه يعطيهم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً (خروج ٣ — ١٧)

وها قد مرَّ على هذا الكلام أكثر من ٤ آلاف سنة منذ ابراهيم الى الآن وعدد بني اسرائيل لم يزد على ١٥ مليوناً . فهل كذب الله عليهم ؟ حاشا . بل الحقيقة إنه لم يعد هذا الوعد لأحد .

كل هذا كُتب في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وهي أسفار التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية . ولهذا سُميت هذه الأسفار الخمسة بأسفار موسى الخمسة. وكان المعتقد ان موسى كتبها بيده لولا أن خبر وفاته مذكور في آخرها . ولا يُعقل أن موسى نعى نفسه وكتب خبر وفاته بيده . ويفسر المفسرون هذا أن يشوع كتبها أو أتمَّ بها السفر الأخير . والحقيقة انه لا موسى ولا يشوع كتبها لانه لم يكن في زمانهما كتابة. وإنما كانت لعهدها الكتابة الهيروغليفية التي كانت محصورة بالكهنة المصريين . وإنما هذه الأخبار كتبها اليهود بعد رجوعهم من سبي بابل ، وبين العهدين سبعة قرون كما سيأتي بيانه.

فوعد الله لابراهيم ولموسى ولجميع بني إسرائيل انه سيملكهم فلسطين مُستند الى التوراة التي في أيدي اليهود الآن ، واسفارها الخمسة الاولى ، أعني أن الحجة التي في يد اليهود بامتلاك فلسطين هي في هذه الأسفار . فلنرَ من كتب هذه الأسفار .

اليهود يزعمون أن كاتب هذه الحجة موسى بأمرٍ من الله ، أو من الرب، وإنها مسجلة في التوراة تسجيلاً رسميًّا . ولكن أي توراة .

فلنبحث في هذه الدعوى :

خرج الإسرائيليون من مصر سنة ١٢٥٠ قبل المسيح هذا بحسب ما يستنتج من توراتهم ، في ذلك العهد كان أرقى نوع من الكتابة هو الخط الهيروغليفي المصري لعهد الدولة المصرية العشرين التي استمرت من سنة ١٢٠٠ الى ١١٠٠ قبل المسيح . وكانت الكتابة الهيروغليفية كتابة تصويرية . أي كانت الأسماء تصوَّر بمسمياتها . فاذا أرادوا أن يكتبوا بيتاً رسموا بيتاً ، أو شمساً رسموا الشمس ، أو عجلاً رسموا العجل، وهكذا دواليك . وكانوا يستعيرون للمعاني أحياناً رسوم الأشياء، فاذا عنوا نوراً أو لمعاناً رسموا شمساً أيضاً . وهي الشيب أن يفهم بالقرينة . ومع ذلك لا يفهم الشيب ، بل كان سلفه يعلمه إياها . وهكذا كانت كتابتهم تنتقل بين الكهنة من السلف إلى الخلف بالتلقين والتعليم ، ولما في كتابتها وحفظها من المشقة لم يكتب بها إلاَّ نقشاً في ألواح حجرية، أو على صلاّت، أو جدران ، أو لحود قبور . ولذلك لمَّا أراد موسى أن يتلقى وصايا الله العشر صعد الى

« جبل سينا » وتحت حجرين وبقي عدة أيام هناك إذ كتب الله عليها بأصبعه وصاياه العشر . هذا إن صحت الرواية أن لله أصبعين يكتب بها . والحقيقة أن هذه القصة من أولها إلى آخرها ملفقة . وما كتبت إلا بعد سبعة أو ثمانية قرون من خروج بني اسرائيل من مصر كما سنبينه فيما بعد .

فجميع الكتابات التي تلقيناها عن مصر والمصريين في الزمن القديم لم تكن تتجاوز صفحات ألواح حجرية أو جدران أو ملاءات حتى الدولة العشرين وما بعدها ببضعة قرون . وفي سنة ٩٩٦ قبل المسيح جاءت الدولة الليبية إلى مصر وحكمتها . وعن طريقها تطرق اليونان والرومان الى مصر . فتطورت اللغة والكتابة بعض التطور وتحولت الهيروغليفية إلى كتابة تسمى هيراتيك كان يمزج بها شيء من الأحرف الصوتية (فونتيك) التي يعطى بها لكل مقطع صوت حرف . ويقال ان هذا الاصطلاح بالكتابة والتعبير كان من اختراع شخص فينيقي يسمى قودموس، وبقي الحرف الهيروغليفي معمولاً به حتى القرن الثالث قبل المسيح ، إذ تغلب عليه الحرف الشعبي المسمى ديموتك الذي تغلب فيه الحرف الصوتي .

وفي أشور وبابل كانت الكتابة تسير الهوينا كما كانت في مصر تماماً . وكانت الكتابة على الحجر وعلى الآجر إذ كان يشوى بعد الكتابة .

لما صارت الهيروغليفية تتطور وتتحول إلى هيراتك صار يُزَجُّ فيها بعض رسوم تدل على حروف صوتية . وصار يمكن أن يتركب فيها بعض أسماء وكلمات . ومنذ الدولة الخامسة والعشرين أي دولة البطالسة التي كانت قبل المسيح بنحو ٣ أو ٤ قرون ابتدأت الكتابة الشعبية تعم (ديموتك) .

وحاصل القول أن الكتابة لعهد موسى لم تكن إلا رسوماً، وكانت مقتصرة على بضع رئيس من الرسوم . وكانت محصورة في الكهنة . وكتابة كهذه لا تسع خمسة أسفار أي خمسة كتب مطولة يدون فيها موسى تاريخ شعبه وشرائعه وأسماء قبائله وأسباطها إلى غير ذلك من مطولات التاريخ . ولم يكن في ذلك الزمن ورق ولا ورق بردي ولا ورق غزال أو ورق من جلود الحيوانات الصغيرة لكي يكتب عليه . ولهذا كتب الله وصاياه العشر على لوحين من الحجارة إن صحت الرواية . إذن من غير شك لم تكتب أسفار موسى الخمسة في عهد موسى حتى ولا بعد موسى بمئات من السنين لأن الكتابة الهيروغليفية لا تحتملها وموسى لم يكن يعرفها .

ان الحياة الاجتماعية قد انقلبت آيتها . فلئن قامت الحياة الاجتماعية قديماً على قوة العضلات والجرأة والبطولة المستندة الى السيف والحربة والمزراق ، وكانت جمعاً من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ، لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع ، كما انها تقوم الى جانب المصنع على قوة العلم الذي يؤسس المصنع ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والأمم الحديثة إنما تعتمد في تشييد ذلك كله على ما يسمى « قوة الحشد » ونقصد به حشد جميع قوى الأمة ، ثم توزيعها على المرافق العامة توزيعاً يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التي تتطلبها الظروف ، أو تدعو اليها السياسة التي توجه فيها خطى الأمة .

ولقد شعرت الأمم بما يحفزها الى العمل على حشد القوى منذ أن بدأ الانقلاب الانتاجي الحديث ، إذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق في معركة التنافس التجاري والتناحر على الحياة . وإنما يتم الحشد بتعبئة قوى الأمة رجالاً ونساء .

بلغت هذه الحال قمتها العليا في الحربين الأخيرتين ، إذ بان جلياً أن الأمة التي تكمل حشدها تكون فرصتها في الفوز أكبر وانتصارها أضمن . ومن ثمت حتى الآن رى العالم وقد أخذت كل أمة تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز في المعركة المقبلة ، وإنها المعركة واقعة لا محالة .

هذا في العالم المتحضر . أما في مصر التي تريد أن تلاحق امم هذا العالم ، وتأخذ بأسباب الحضارة الانتاجية الصناعية ، فلا يؤمن أحد بما لقوة الحشد من أثر في القدرة على البقاء في عالم تستعد شعوبه للمعركة القاصلة ، وإنما يراد بنا أن نؤمن بالتقاليد : تلك العنقاء الموهومة .

أما أولئك الذين يقولون بأن روسيا قد رجعت خطوات بعد أن طفرت الى حرية المرأة فيكادون لا يعرفون عن روسيا شيئاً . وإنما هم يلجؤون الى أقوال أشبه بأقوال ذلك الذي أتى بانسان وقال له كم عدد النجوم التي تظهر في الليل ، فلما عين رقماً موهوماً ، قال له أنت مخطىء . والواقع أن كليهما مخطىء ، ولا يعرف من الحقيقة الا وهماً يتراءى . أما الحق فهو ان الفتاة الروسية هي التي أنقذت ستالينجراد من السقوط في يد الالمان ، وبذلك ردّت جحافل الالمان عن الوطن الروسي . هي التي عبرت الفولجا في الظلام لتنقل الذخيرة والميرة للمدافعين عن مدينة الفولاذ . ولعلّ أولئك الواهمين لا يقولون أن ذلك هو السبب الذي نقم له الروسيون من المرأة فعملوا على ردها حريماً على الصورة التي يتمناها أصحاب التقاليد .

اسماعيل مظهر